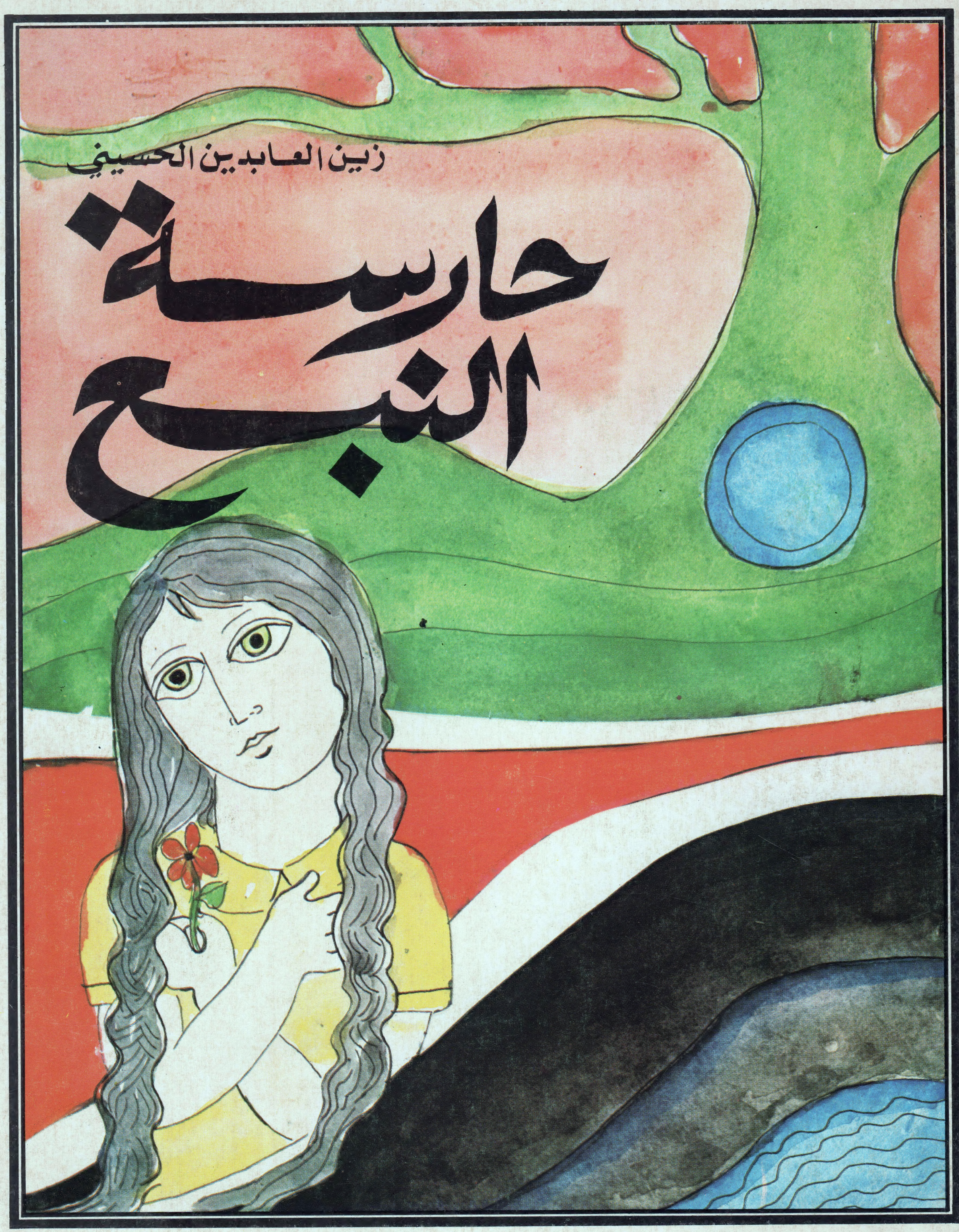
زين العابدين الحسيني

حارسة النبع



سلسلة **الأفق الجديد**

قصة زين العابدين الحسيني

رسوم منى سعودي



حارسة النبع

الطبعة الأولى ، ١٩٧٥

الطبعة الثانية ، ١٩٧٧

الطبعة الثالثة ، ١٩٨٠

الطبعة الرابعة ، ١٩٨٥

دار الفتى العربي

كان يعيشُ في قرية صغيرة تُنبِتُ أَرضُها زهرَ الحنّون وخبزَ الغرابِ والزنبقَ ، فلاحٌ وزوجُهُ عيشةَ هناءٍ وحبٍّ ورضى .

وكان للزوجين كوخٌ صغيرٌ ذو حديقةٍ صغيرة ، فيها عددٌ من أشجار الزيتون ، وكانت تعرِّشُ على الكوخِ داليةٌ كبيرةٌ بجوارِها شجرةُ ياسمين يفوح عبيرُ زهرها في أُمْسِيَات الربيع والصيف فيملأُ جوَّ الكوخِ والحديقة الصغيرة برائحة عَطِرة .

وكان أَهلُ القريةِ يحبّون الزوجينِ لأَنَّهما كانا يُسرعان إلى معاونةِ كلِّ مَنْ يَقصِدُهما بروحٍ مُفْعَمةٍ بالإخلاص والصِّدْق . كما كان من عادتِهما أن يُشاركا الآخرينَ في فِلاحَةِ أَرْضِهِمْ إذا هما فرغا من فَلْحِ قطعةِ أَرْضِهِما الصغيرةِ . لكنْ كانَ يُحزِنُ الزوجين أنهما لم يُرْزَقا طَوالَ السنوات الماضيةِ بطفل أو طفلة تُؤْنِسُ حياتَهُما وتملأُ الدنيا عليهما بهجةً . وكان أهلُ القرية إذا ما شاهدوا

الزوجين عائِدَيْن إلى كوخِهِما الصغيرِ يقولونَ : « ما أَسعَدهُما لو رُزقا بطفل أو بطفلة ! ! »

واستجيبَ دعاءُ أهلِ القريةِ فَرُزِقَ الزوجان بطفلة بالغةِ الحُسْنِ ، تَشِعُّ من عينيها خُضرةُ أوراقِ الزيتونِ وتَكتسي وَجْنَتاهَا بِحُمْرَةِ أَزْهار الحنّون المنتشرةِ وَسْطَ سنابلِ القمحِ الذهبية ، أما شعرُها فكان ذا لونٍ أسودَ يتماوجُ كلما هبَّت عليه النَّسَماتُ كتموّجاتِ وَجْهِ الغديرِ الصافي في القرية .

حارَ الوالدانِ في اختيارِ اسمٍ يليقُ بابنتِهما ، لكنَّ نساءَ القريةِ اللواتي أَحْبَبْنَها حُبّاً عظيما حين طالعْن وجهَها ، قُلن :

كانَ قدُوم الطفلة قدومَ سَعْدٍ وخير لكلِّ أهل القرية ، فقد صادَفَ يومَ ولادتِها أن زادَتْ غلَّةُ الأرض بشكلٍ لم يَسبقْ له مثيل .

ولذا اجمعَتْ نساءُ القريةِ أَن يكونَ لها اسمٌ لم تحملْهُ



من قبل ايةُ فتاة .

وبعدَ فترة من التفكيرِ توصّلْن إلى اختيارِ اسمٍ جميل لها ، وذهبْنَ إلى والدَيْهَا وقلنَ لهما إِنَّهنَّ اخترْنَ للطفلة اسمَ :« سماء ! ! »

مضى العامُ الأولُ من عمرِ سماءَ . لاحظتِ الأُمُّ في قَلَق أن ساقَي ابنتها لا يَنْمُوان نموّا طبيعيا ، وإنما ظَلَّتا نحيلتين مثلما كانتا يومَ ولادتها ، فتألمتْ كثيرا حين أَدْركَتْ أنه لن يكونَ في مقدور سماءَ أن تَلْهُوَ وتركُض مع رفيقاتِها من بناتِ القريةِ . وحزن أَهلُ القريةِ ، وحاولوا أَن يواسوا والديهَا بكلمات مناسبة . غيرَ أَن الأَبَ الصابرَ كان يقول :

« إِن اللهَ كان يعْرِفُ مدى حاجَتِنَا إلى طفلةٍ ، وقد استجابَ اللهُ لنا فأَرْسل لنا طفلة حلوة هي الأخرى بحاجةٍ إلى حبِّنا وحنانِنا . »

كَبُرَتْ سماءَ واصبحَ عُمرها ثماني سنواتٍ ، فازدادتْ

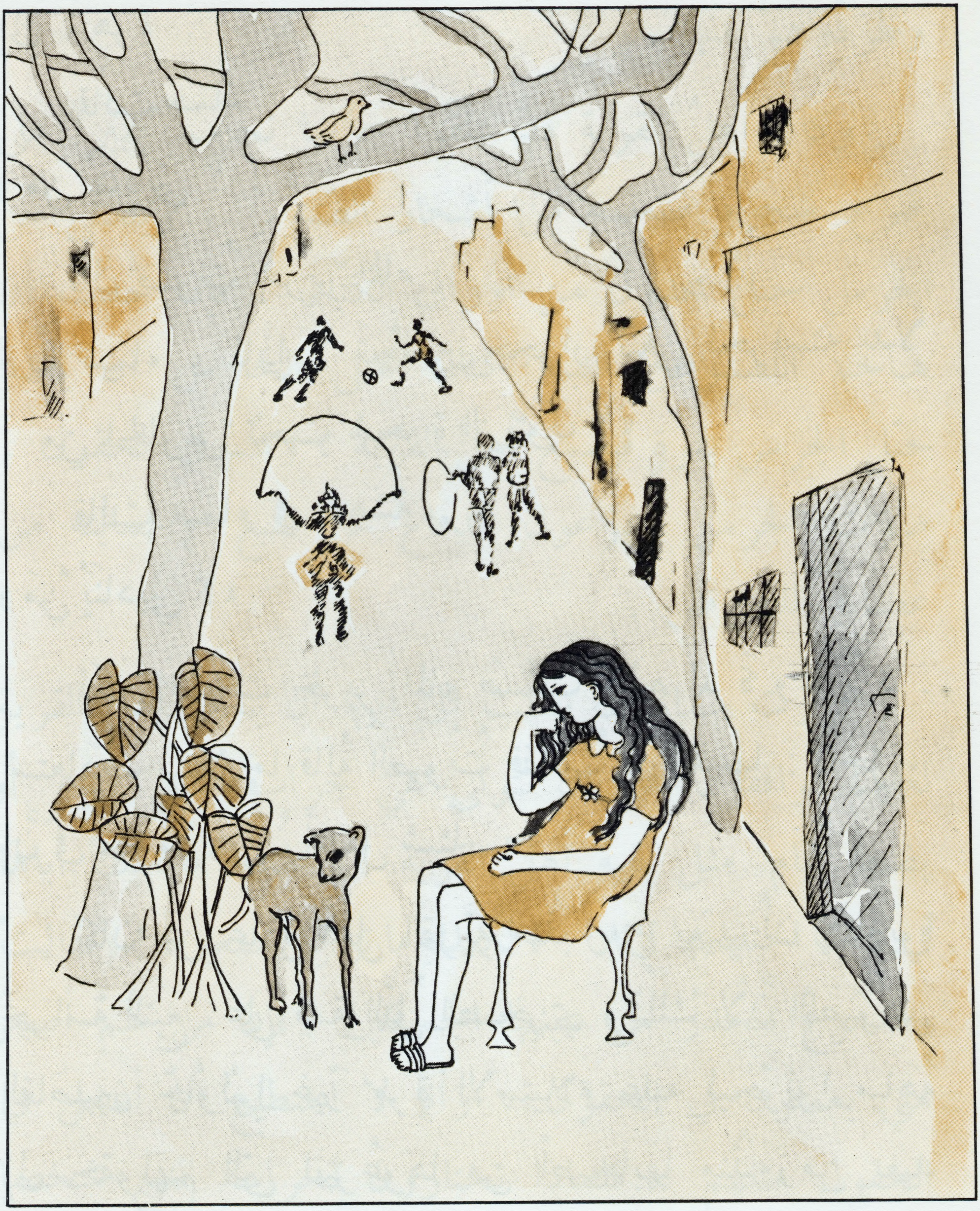
بهاء وجمالا ، وكانت إذا نظرَتْ بعينيها الخضراوينِ إلى الحقولِ تبدو وكأنَّها تزدادُ اخضراراً ، ويمتلئُ الكونُ بزقزقات العصافير ، كما كان قلبُ سماءَ يتفتَّحُ مثلَ تفتُّحِ براعمِ الزَّنبق الناميةِ على حافةِ الغدير ، ويزدادُ تورد وجهها حتى كأَن ورقتينِ من زهر الحنّون قد ذابتا في خدَّيها . لكنَّ ساقيْها ظلّتا عاجزتين عن حملها من مكانٍ إلى مكان . وكان أهلُ القريةِ يرسلونَ أولاَدَهُمْ وبناتِهم بعدَ الانتهاء من العمل في الحقول للتَّحدُّث إلى سماء ، كي لا تحسَّ بالوَحْدَةِ والوَحْشة . وكان بعضُهُم يُحاولُ تعليمهَا قراءةَ الحروف والكلمات ، أو يَحكي لها القصصَ المسلية .

وكان الأمرُ الوحيدُ الذي يُحزِنُ سماء ، انها لا تستطيع أَن تعملَ كالآخرين ، فقد كان جميعُ أهل القرية ، صغارا وكبارا ، رجالا ونساءً ، فِتية وفتيات ، يعملونَ معا في زراعة الحقول ويحصدونَ في مواسم الحصاد معا ، ويقيمونَ الحفلات والولائم في نهاية مَوْسِمِ الحَصاد فيرقصُ

الشبابُ الدبكَة وتُغنِّي الفتياتُ أُغنياتٍ يُردّدنَ فيها أَسماءَ أَبطال القرية الشُّجعان حُمَاةِ النبعِ الذي يَمُدُّ القريةَ بالماء ، ويبعثُ الحياةَ في الحقول ، ويشيعُ النَّضارةَ في وجوه أهل القرية .

ولكن ، ماذا تستطيعُ سماء أن تعمل ؟ أخذَتْ تفكِّر : « ماذا أعملُ ؟ وكيف أعملُ ؟ وأنا لا أملِكُ ساقين أسيرُ بهما ؟ » واغرورقَتْ عيناها بالدُّموع ، فحزنت الطيورُ وكفَّتْ عن تغريدها ، وتهدَّجَ خريرُ ماءِ الغدير .

أَخذَتْ سماءُ تتطلعُ إلى الحقولِ ، وإلى أهلِ القريةِ وهم مُنْكَبُّون على العمل . وراحَتْ تَرْقُبُ النحلَ وهو يتنقل من زَهرة إلى زهرة ليمتصَّ الرحيقَ ويصنعَ العسلَ لمملكتِه . وفجأَةً سَمِعَتْ صوتا كخريرِ الماءِ يقولُ : « يا سماء ! » تَطَلَّعَتْ سماءُ حولَها ، فلم تَجدْ أَمَامَها سوى الغدير ومدَّت بَصَرَها فرأتِ الحقولَ وَمِنْ فوقِها طيورٌ بيضاءُ تحومُ من مكان إلى مكان ، وكان النحلُ ما يزالُ يَنْتَقِلُ من زَهْرة



إلى زَهرة .

قالت سماءُ :

« من يُنَادِيني ؟ ! »

قال صوتُ خريرِ الماء :

« يـا سماء ، لماذا لا تَجْلسينَ بجوارِ نَبْعي لحراستهِ بدلاً من الجلوسِ تحت شجرةِ الزيتون ؟ »

قالت سماء في دهشة :

« مَنْ يُنَاديني ؟ »

لكن صوتَ خريرِ الماءِ صَمَتَ هذه المرةَ ولم يَرُد . استعادَتْ سماءُ ما قالهُ الصوتُ فقالتْ في نفسِها : « أجل ، إنَّ في مقدوري أَنْ أعمل شيئاً . »

كان من عادة أهل القريةِ منذُ زمنٍ بعيدٍ أن يتناوبوا حِراسةَ النبع على قمةِ التَّلِّ الصخري وذلك لأنَّ اللصوصَ الغاصبينَ حاولوا غيرَ مرةٍ الاستيلاءَ عليه ليحوّلوا مياهَهُ إلى حقولِهم التي انتزعُوها من أصحابها منذُ زمن بعيد

وطردُوهمْ منها .

وكان أَهلُ القرية قد علّقوا جرَسا نُحاسياً كبيراً على فرعِ شجرةٍ ضخمةٍ من أَشجار الصَّنَوْبرِ ، ويتَدلَّى من الجرسِ حبلٌ مجدولٌ من أوراق الكتّان ، فإذا حدَثَ أن هاجَمَ اللصوصُ النبعَ كان على الحارس ان يشدَّ حَبْلَ الجرس بقوةٍ فيسمعَ أهلُ القرية ، وهُمْ في الحقول ، صوتَ الجرس فيهرعونَ للدفاع عن النبع وحمايته من عصابةِ اللصوص .

قررتْ سماءُ أن تطلُبَ إلى أبيها أن يسألَ أهلَ القريةِ لعلَّهم يُوافقونَ على أنْ تتولَّى هي حراسةَ النبعِ ليومٍ أو بضعةِ أيامٍ مثلَ بقية أهلِ القرية . وعندما فاتَحَتْ أباهَا في ذلك احتَضَنَها قائلاً : « لكنَّكِ ما تزالِينَ صغيرةً ! » فقالتْ والدمُوعُ تنحدرُ من عينيها الجميلتين : «إن من هُمْ أصغَرُ مني يعملونَ في الحقول ، وأنا لا أستطيعُ أَنْ أعملَ في الحقول مثلهُم ، فلماذا تختارونَ لحراسة النبع شخصا

يستطيعُ ان يكونَ عملهُ في الحقول أكثرَ جدوى ؟ ! »

قالتِ الأُم : « ولكنَّك يا ابنتي .... »

قالتْ سماءُ : « أعرفُ أنني عاجزةٌ عن السَّير .. ولكن يا أُمي لو كنتُ غيرَ صالحةٍ لعملِ شيءٍ لما جاءَ اللّٰهُ بي إلى هذه الدنيا ؟ ! »

قال الأبُ وهو يحتضنُ ابنَتَه : « صَدَقْتِ ، صَدَقت ، يا سماء . »

ما كانَ أشدَّ سرورَ سماء حين وافقَ أَهلُ القريةِ على أَنْ تَتَولَّى حراسةَ النبع يوما واحدا كلَّ أُسبوعين ، وعندما حانَ دَوْرُهَا للحراسة ، استيقظَتْ مبكِّرةً أكثرَ من أيِّ يوم ، وراحَتْ تتطلعُ من نافذة الكوخ الصغير . كانت العصافيرُ والأشجارُ والأزهارُ ما تزالُ نائمةً ، والشمسُ لم تصحُ بعدُ . وكانتِ السماءُ ذاتَ لونٍ مضيءٍ مُشعّ . وراحت سماء تتأملُ الأشياءَ والكائناتِ وهي تَصْحُو كلّما اقتربَ موعدُ طلوعِ الشَّمْس ، وأصغَت بسرورٍ إلى



زقزقات الطيور الصغيرة ، ومحاولاتِها أن تحاكي الطيورَ الكبيرةَ في التَّغْريدِ ، وقالتْ : « هذا أولُ يومٍ أبتعدُ فيه عنكم يا أحبائي . »

استعدَّتْ سماء للخروج ، كذلك والدُها ، وحَمَل الأبُ سماء في حبّ وحنان ، وحملَتِ الامُّ كُرْسِي سماء المجدولَ من البوصِ وأغصان الزيتون وأوراق الكَتَّان .

وتوجَّهَ الجميعُ صوبَ التلِّ الصخري حيثُ النبع .

حينَ وصلوا إلى النبع ، قال الأبُ وهو يُجلِسُ سماء على كُرسيّها :

« إذا رأيتِ أحداغريبا قادماً من أسفلِ التلِّ نحوَ أعلاه فَشُدِّي هذا الحَبْل كي يُدَقَّ الجرسُ فيسمعَ الجميعُ الدقَّات . »

قالتْ سماء فرحةً :

« سأفعلُ يا أبي . »

ضَمَّتِ الأُمُّ ابنتها وقَبَّلَتْهَا ثم قالت :

« لقـد وضعتُ لك في صُرَّةِ الأكلِ بعضَ الخبز والجُبْن وثلاثَ تُفَّاحات وبُرتقالة ، وهذا إبريقُ الماءِ بجوارِك . »

قالت سماء : « شكرا لك يا أمي . »

بقيتْ سماء وحدَها بعدَ أن تركَها والداها وذهبَا للعملِ في الحقل . أَخذتْ تنظر إلى القرية والحقول وكان المنظَرُ بديعاً . سمِعَتْ صوتَ خريرِ الماءِ ورأته وهو يندفعُ بين الصخور مُحْدِثاً فُقَّاعاتٍ بيضاءَ متحدِّراً إلى أسفل التل .

قالت سماء حينَ أَصْغَت إلى صوت خريرِ الماءِ : « إنَّ صوتَه يُشْبِهُ ذلك الصوتَ الذي كلّمني بجوارِ الغديرِ في ذلك اليوم . »

تطلَّعتْ سماء الى مياه النبع المتدفقة إلى أسفل وقالت : « أَلَسْتِ أَنتِ صاحبةَ الصوتِ ؟ »

لكنَّ صوتَ خريرِ الماءِ لم يُجِبْ ، وإنَّما راحَ يتدفقُ بقوَّة أكبرَ إلى أسفل .

مضى بعضُ الوقت ، وأصبحتِ الشمسُ في مُنْتَصَف



السماءِ : إِنَّها الظهيرةُ . . حان مَوْعِدُ الغَدَاء. أكلتْ سماء تفاحة ، وأَغمضت عينيها وصوتُ خريرِ الماءِ يَنْسَابُ في نُعومة إلى أُذُنَيْها كالموسِيقَى الحلوةِ فأَغفَت . غَرِقتْ في حُلُم ممتع شاهَدَتْ فيه الطيور . رأَت نَفْسَهَا طيراً يسبحُ في الفَضاءِ ويحطُّ على كلِّ الأشجار .

ولكنَّها صَحَتْ من حُلُمِهَا على صوت خرير الماء يصيحُ : «حَذَارِ، حَذَارِ يا سماء من النوم ، وإلا فقدتُمُ النَبعَ المُقَدَّس . »

فتحتْ سماء عينيها مَذْعُورةً ، وراحتْ تُحَدِّقُ في مياهِ النبع ، ثم نظرت إلى أسفلِ التلِّ الصخري ، فَرَأَتْ أُناساً عجيبي الخِلْقَةِ ، يحاولونَ صعودَ التلِّ .

على الفور ، عَرَفَتْ سماءُ أَنَّهم أفرادُ عِصابةِ اللُّصوص ، فقالت في نفسِها : « أتمنَّى أَنْ لا يكونَ قد فات الوقتُ لإِنذارِ أَهلِ القرية . » مدَّتْ يَدَهَا لتسحبَ حَبْلَ الجَرَسِ . لكنَّها اكتشفتْ أَنَّ الحبلَ أصبحَ بعيداً عنها .

قالَتْ سماء : يا إلهي . . ماذا حدث ؟ ! »

فسمعتْ صوتَ خرير الماءِ يقول : « عندما نِمْتِ يا سماء انزلق الكرسيُّ قليلاً إلى الأمام . »

صاحتْ سماء وهي ترى عِصَابةُ اللصوص وقد بدأوا في تسلُّق التلِّ :

« ماذا أفعل ؟ ! »

لم يَرُدَّ صوتُ خرير الماء . مَدَّتْ يدها بأَقْصَى ما تستطيعُ من قوةٍ لِتُمْسِك الحبل ، دونَ جَدْوَى . صاحت : « ماذا أَفعلُ ؟ إِنَّهم يقتربون ! ! »

قالَ صوتُ خريرُ الماءِ : « قفي ، سيري على قدميك . »

قالت سماء : « لا أستطيع ... »

قالَ صوتُ خرير الماءِ في غضب : « سيري على قدميك قبلَ فَوات الأَوان . »

إِتكأَتْ سماء بكفَّيْها على حافتي الكرسي ، حاولت ان ترفعَ جسمها إلى أعلى . لامست قدماها الأرضَ .

حاولت ، حاولت أن تقفَ ، لكنَّها هَوَتْ على الكرسِي . قال صوتُ خرير الماء : « إنَّها الفرصة الأخيرة لإنقاذِ قريتك يا سماء .. لا وقت للترددِ .. لا وقت للفشل . »

اتكأَتْ سماء بِكَفَّيها من جديدٍ على حافة الكرسي ، استمدتْ قوةً اكبرَ وهي تتذكر أَهْل القرية وحبَّهم لها . رفعتْ جسمها إلى أعلى . لامست قدماها الأرض . وقفت . لم تقع هذه المرة . اهتزت ركبتاها . اندفعَ جَسَدُها إلى الأَمام . كادَتْ أَن تسقط .

صاحَ خريرُ الماءِ بقوّة: «لا وقت للسُّقوطِ .. لا وقتَ للسقوط.» تماسكتْ سماء . وقفت . انحنت بصعوبة . أمسكت ركبتيها بكفيها . دَفَعَتْ بكلِّ ما تَمْلِكُ من قوة رجلَهَا اليمنى خُطْوَةً قصيرةً للأَمام . ثم خطوةً ثانيةً بالرجلِ اليسرى . نظرت إلى عصابة اللصوص . إِنَّهم يَقْتَرِبون ، ولكن ما يزالُ لديها وقتٌ . «اسرعي . اسرعي يا سماء . تماسكي يا قدمي اليمنى . تماسكي يا قدمي اليسرى . تشجّعي يا

يدي . » مشت سماء خطوتين إلى الأَمام . الآن عليها أن تشدَّ قامتهَا ، أَنْ تمدَّ يَدها إلى الحبلِ ، أَن تمسكه بقوةٍ : « أَجلْ . . هكذا تعلَّقِي بالحَبْلِ يا سماء . تأَرجحي به إلى الأمام . إلى الوراء . . إلى الأَمام . . إلى الوراء . هكذا يسمعُ الجميعُ ، أهل قريتك ، وأهلُ كلِّ القرى صوتَ الجرس . »

سمعَ القَرَويّون وهمْ في الحقول صوتَ الجرسِ وهو يدقُّ مدوّياً . هرعوا جميعا حاملينَ فؤوسَهمْ ، وَعِصِيَّهُمْ وبنادقَهم ، واتجهوا صوبَ تلِّ النبع .

بعدَ لحظات كانوا هناك .

لم تكنْ عصابةُ اللصوصِ قد وصلت بعد إلى النبع . تصدَّى أَهلُ القرية بشجاعة فائقة لأَفراد العصابة . قتلوا كثيرين وفرَّ من بقيَ منهم حيّاً .

صعد أهلُ القريةِ إلى التلِّ الصخري ، حيثُ النبع . بحثوا عن سماء لكنَّهم لم يجدوها .

« سماء ! سماء ! أين انتِ يا سماء ؟ ! »



رأوا كرسي سماء بعيداً عن الحَبْل ، شاهدوا آثارَ قدميها متجهة من الكرسي نحوَ الجرس ، هتفتْ أمُّ سماء :
« لقد مشت .. مشت سماء . »

وردَّد الصدى : « مشت سماء . »
وعلا صوتُ أهل القرية : « لقد مشت .. مشت سماء . »
بحثَ الجميعُ عن سماء ، دونَ جَدوى . وبعد ساعات من البحث المُضْني ، جلسَ الجميعُ في صَمت وَحُزْن حولَ النبع ، يُصْغُونَ إلى صوتِ خرير الماء .

قال واحد :
« لا نعرفُ أين ذهبت سماء ، لكن من المُؤَكَّد أنَّها سَتعود . »

قالَ طفلٌ صغير :
ـ لقد طارَت مع الطيور البيضاء التي تأتينا كلَّ صيف ، وستعودُ الينا مع الطيور في الشتاء . »
قالت أُمُّ سماء : « لقد تَعِبَتْ كثيراً من الجلوس على

الكرسي ، ثم مَشت ، لكنني واثقةٌ بأن إبنتي ستَعود . »

قررَ أَهلُ القريةِ إعدادَ شيءٍ يُذكِّرهُم دائماً بسماء ، فأحضروا قطعاً من القماش الحريري الملون ، قال أحدُهم : « اللَّونُ الأحمرُ لِخَدَّيْ سماء . »

قالتِ امرأة : « واللون الأخضرُ لعيني سماء . »

وقالتِ الأم : « واللونُ الأبيضُ لقلبِ سماء الناصعِ الطاهر كزنابق الغدير . »

وقالت طفلة : « اللونُ الأسودُ لشعر سماء المضيء . »

وخاطت كل أسرة رايةً جميلة من الألوان الأربعة ، وشَدَّتْ طرفي الراية بخيوطٍ متينة إلى عصا من شجر الزيتون . ثم رَفَعَتْ كل أسرة فوقَ بيتها الرايَة ذاتَ الألوانِ الأربعة . وهكذا أصبحت ألوانُ سماء : الأخضر ، والأحمر ، والأبيض ، والأسود ، هي ألوانُ رايةِ أهلِ القرية . وكان أهلُ القرية واثقين أنَّ سماءَ ستعود لتقرعَ الجرس إذا حاولَ اللصوصُ سرقة مياه النبع .



طباعة مؤسسة دار الريحاني هاتف ٨١١٩٨٨ ص.ب ٣٢٢٨/١٣ بيروت